عيذاب : حياتها الدينية والأدبية

بقلم أبراهيم بشير

مقدمة تاريخية (١) :-

لعل أول استخدام لمرفأ عيذاب يعود الى عصر البطالسة (٢) ولكن الخمول لازمه لقرون عديدة ، الى ان قيض له ان يعلو ذكره ويستفحل فى النصف الاول من القرن التاسع الميلادى بفضل نشاط العرب التعدينى فى الجبال المتاخمة وجزر البحر المجاورة ونحو منتصف القرن الحادى عشر الميلادى تحول طريق قوافل الحج لجميع بلدان شمال افريقيا والاندلس من صحراء سيناء الى ثغر عيذاب لقعود الخلفاء الفاطميين عن خفارة تلك الطريق ابان الاضطرابات التى هزت دولتهم يومئذ (٣) . وقد ظل طريق سيناء بعد ذلك محفوفا بالمخاطر لبضعة قرون بسبب غلبة الصليبين على بلاد الشام وظهورهم على المسلمين بها .

وقد تضافرت عدة عوامل لتحوز عيذاب قصب السبق على رصيفاتها من المرافىء . فقد كانت أقرب نقطة عبور الى جدة، كبرى مرافىء الحجاز من العدوة الافريقية (٤) . ومن ناحية أخرى فان السفن الميممة شطر مصر توفر من الوقت وتتقى العديد من المخاطر اذا رفأت بعيذاب . ولاعتبارات استراتيجية فان موقعها الذى يتوسط البحر الاحمر جعلها أكثر ملاءمة من غيرها كقاعدة لاساطيل مصر الاسلامية المناط بها حماية السفن التجارية .

وعندما تحولت طرق التجارة الشرقية من الخليج الفارسى الى البحر الأحمر بفضل جهود الخلفاء الفاطميين (٥) ، استشرفت عيذاب عصراً زاهرا ارتقى بها الى مصاف المرافىء العالمية . ولعل فيما خلفه عنها الرحالة الاوائل من آثار خير دليل وأصدق شهادة . وأولهم الداعى الفاطمى الفارسى

أبو معين ناصرى خسرو والذى زارها فى أغسطس عام ١٠٥٠ م فى طريقه من مصر الى الحجاز لاداء فريضة الحج ، فقد جاء فى كتابه المترجم بسفرنامة. ومدينة عيذاب هذه تقع على شاطىء البحر وبها مسجد جمعة ، وسكانها خمسمائة ، وهى تابعة لسلطان مصر ، وفيها تحصل المكوس على مافى السفن الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن ومنها تنقل البضائع على الابل ألى اسوان فى هذه الصحراء التى اجتزناها ،ومن هناك تنقل بالسفن الى مصر فى النيل(٦) ولعل اهم ماانفرد به الرحالة الفارسى عن غيره ماساقه من ان عيذاب كانت تحت سيطرة الفاطميين ، فقد أجمعت المصادر التى اعقبت ناصرى خسرو على أن السيادة على الميناء كانت مناصفة بين حكام مصر الاسلامية وملوك البجة (٧) . وقد أسهب خلفه ، ابن جبير والذى زارها فى عام ١١٨٣م فى وصف عيذاب وأوجه حياتها المختلفة ، فمن اوجز عباراته عنها وأغزرها فائدة قوله : (وهى مدينة على ساحل بحر جدة، غير مسورة ، أكثر بيوتها الاخصاص ، وفيها الان بناء مستحدث بالجص ،وهى من أحفل مراسى الدنيا بسبب ان مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائدا الى مراكب الحجاج الصادرة والواردة) . (٨) وقد أورد ابن جبير عدة ملاحظات أخرى عن عيذاب يجدر بنا الوقوف عندها . فقد ذكر بأن هناك مغاصا للؤلؤ فى بعض الجزائر القريبة من الثغر وأن أوان الغوص عليها فى شهرى يونيو ويوليو من كل عام : « ويستخرج منه جوهر نفيس ، له قيمة سنية ، يذهب الغائصون عليه الى تلك الجزائر فى الزوارق ويقيمون فيها لأيام فيعودون بما قسم الله لكل واحد منهم بحسب حظه من الرزق » (٩) وربما ألقى قوله هذا المزيد من الضوء على نشأة عيذاب وابتداء أمرها، وذلك أن نشأتها لابد كانت مرتبطة بالنشاط التعدينى البرى للذهب والزمرد والبحرى للأحجار الكريمة ، أما التجاره الشرقية وحركة الحاج — فهما نشاطان طارئان .

ثم أنّ الرحالة الأندلسى أمدنا بمعلومات قيمة عن أهل عيذاب : « وأهلها الساكنون بها من قبيل السودان يعرفون بالبجاة ، ولهم سلطان من أنفسهم يسكن معهم فى الجبال المتصلة بها ، وربما وصل فى بعض الأحيان واجتمع بالوالى الذى فيها من الغز إظهار للطاعة ، ومستنا به مع الوالى فى البلد، والفوائد كلها له الا البعض منها » (١٠). ويؤكد قوله هذا ان البجاة هم العنصر السائد فى الثغر ، بل يكشف فى موضع آخر انهم كانوا أصحاب المال والعقار بها : « وكان نزولنا فيها بدار تنسب لمونح أحد قوادها الحبشيين الذين تأثلوا بها الديار والرباع والعقار » (١١). ومن ناحية أخرى فان عجز عبارة إبن جبير يدعم ما أشرنا اليه من قبل من أن حكومة عيذاب كانت شركة بين حكام مصر الإسلامية وملوك البجة المحليين . ولعل أول من أشار الى هذا اللون من الحكم الثنائى بعيذاب الشريف الإدريسى الذى كتب قبيل إبن جبير بسنوات قليلة . عند حديثه عن عيذاب ، حيث يقول : « بها عاملان احداهما من قبل البجة وآخر من مصر يقتسمان جبايتها ، على المصرى جلب الأقوات ، وعلى البجاوى حمايتها من الحبشة » (١٢) .

وقد اختتم الرحالة الأندلسى ملاحظاته بالتعريض بأهل عيذاب ، واصفا كلبهم على جمع المال من الحاج ، وهى ملاحظة وافقه عليها كثير ممن زارها بعده . قال إبن جبير : « ولأهل عيذاب فى الحجاج أحكـام الطواغيت ، وذلك أنهم يشحنون بهم الجلاب حتى يجلس بعضهم عـلى بعض وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملؤة . يحمل أهلها على ذلك الحرص والرغبة فى الكراء حتى يستوفى صاحب الجلبة منهم ثمنها فى طريق واحدة ، ولا يبالى بما يصنع البحر بها بعد ذلك ، ويقولون : علينا بالألواح ، وعلى الحجاج بالأرواح، وهذا مثل متعارف بينهم » (١٣) . ويضيف فى موضع آخر : « فالحلول بها من أعظم المكاره التى حف بها السبيل الى البيت العتيق زاده الله تشريفا وتكريما وأعظم أجور الحجاج على ما يكابدونه ، ولاسيما فى تلك البلدة الملعونة ، ومما لهج الناس بذكره قبائحها حتى يزعمون ان

سليمـــان بن داود على نبينا وعليـــه الســـلام ، كـــان اتخـــذها سجنا للعفـــارته ، أراح اللـــه الحجاج منها بعمـــارة السبيل القـــاصده الى بيته الحرام ، وهى الطريق التى من مصر على عقبة أيلة الى المدينة المقدسة(١٤) ويشير الجزء الاخير من عبارته الى عامل من العوامل التى أدت الى أضمحلال عيذاب ، وذلك أن شره العيذابيين دفع بقوافل الحاج الى طريق سيناء حال تحريره من سيطرة الصليبين .

وآخر الرحالة ذوى الخطر ممن اختلف الى الثغر أبو عبدالله محمد ابن عبدالله اللواتى الطنجى المعروف بابن بطوطة مؤلف كتاب تحفة النظار الذى اشتهر برحلة ابن بطوطة . ومثل من سبقوه فقد خلف لنا ابن بطوطة قـــدرا صالحا من الملاحظات أضاف الكثير الى مانعرفة عن عيذاب. قال ابن بطوطة :- (وصلنا الى مدينة عيذاب ، وهى مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن ويحمل اليها الزرع والتمـــر من صعيد مصر وأهلهـــا البجاة وهم ســـود الالوان يلتحفون بملاحف صفراء ويشدون على رؤسهم عصائب يكو نعرض العصابة أصبعا)(١٥). والجديد فيما أورده ابن بطوطة، والذى زارها بعد قرابة قرنين من زيارة بن جبير لها، أنه وصفها بأنها مدينة كبيرة، مما يشير الى نمو مضطرد فى العمران ، وذلك عنوان الوفرة والرخاء . وابن جبير نفسه قد ألمح الى أنها كانت تستشرف أعتاب نهضة عمرانية كبرى حين قال :(أكثر بيوتها الاخصاص وفيها الان بناء مستحدث بالجص) (١٦) . ويواصل ابن بطوطة ملاحظاته فيقول : « وثلث المدينة للملك الناصر وثلثاها لملك البجاة وهو يعرف بالحدربى . . . . . ولما وصلنا الى عيذاب وجدنا الحدربى سلطان البجاة يحارب الاتراك وقد حرق المراكب وهرب الترك أمامه فتعذر سفرنا فى البحر » (١٧) . وابن بطوطة هنا يدعم قول ابن جبير فى أن ملك البجة يستأثر بالشطر الأعظم مما تقله عيذاب . وفرار الجند المماليك أمام سطوة الحدربى سلطان البجة أشارة الى الخلافات التى كثيرا ما اعتورت الشركة وأفسدت العلاقة بين الطرفين ، ولعل تصعيد هذا الخلاف من جانب البجة

فى الحقب التالية ، وتزيدهم السافر ، كان من أكبر العوامل التىأزهدت المماليك فى عيذاب وأشاحت وجوههم عنها ودفعتهم دفعـاً الى الاستعاضة عنها بغيرها . فقد كان حـكام مصر الاسلامية حريصين على سلامة الطرق التجارية البحرية والبرية المؤدية الى الميناء لحيوية التـجارة الشرقية بالنسبة للاقتصاد المصرى ومايتصل بذلك من استقرار للنظام السياسى فيها . وقد تجلى ذلك فى استجاباتهم السريعة الحاسمة وتصديهم للأخطار البرية والبحرية التى تهددت الميناء والطرق المؤدية اليه ، فعلى أيام الفاطميين قام أمراء مكة بتهديد الطريق البحرية عام ١١١٨م ، مما حدى بالخليفة الفاطمى الى اتخاذ تدابير عسكرية وسياسية عاجلة لعزل الخطر الحجازى واعادة ثقة التجار فى مقدرة الدولة الفاطمية على حماية حركة الملاحة التجارية فى البحر الاحمر (١٨).ولم تسلم عيذاب من محن الحروب الصليبية : ففى عام ١١٨٥ م قام الامير أرناط متولى الكرك بتجميع أسطول فى البحر الاحمر هاجم به عيذاب وأحرق بها عدة سفن ونهب ذخائرها وتجاراتها ، كما قام بعدة غارات فى البر وعاث بتلك النواحى الى أن أدركته القوات الايوبية وأوقعت به (١٩). وبعد قرابة قرن من الزمان من ذلك التاريخ وفى عام ١٢٧٢ م بالتحديد أغار الملك داود صاحب بلاد النوبة على عيذاب وقتل واليها وقاضيها وعاد الى دنقلا مثقلا بالغنائم والأسرى ، وابتنى بدنقلا مكانا سماه عيذاب سخر فى بنائه الاسرى وذلك على سبيل السخرية والاستهزاء بالمسلمين ، فكان ان استجاب السلطان الظاهر بيبرس بحملة كبرى على بلاد النوبة فى عام ١٢٦٧ م هزت اركان العرش النوبى وكانت من أقوى أسباب اضمحلال وانهيار مملكة المقرة (٢٠) الى جانب ماأوردنا من محن وأخطار لحقت بالثغر فانه كثيرا ما كان عرضة لهجمات من قبائل البجة والعربان المحليين ، كانت كغيرها موضع عناية واهتمام حكام مصر الاسلامية (٢١). ونسبة لهذه الاخطار الماثلة أبدا فانه ما أن تم استخلاص الطريق البرية بين مصر والحجاز من قبضة الصليبيين نحـو منتصف القرن الثالث عشر الميلادى حتى سارعت قوافل الحج والتجارة الى

ارتياده منصرفة عن طريق عيذاب . وسرعان ماقعد سلاطين المماليك عزوفا أو عجزا عن توفير الحماية الفعالة للمنياء والطرق التجارية المؤدية اليه بخاصة أمام تحرش القبائل المحلية . وباستكمال سيطرتهم على الحجاز عول سلاطين المماليك على ثغر جدة كفرصة للتجارة الشرقية عوضا عن عيذاب مما كان له أثره المباشر فى اضمحلالها . ومن ناحية أخرى فان التدهور بدأ يدب باضطراد فى أوصال الاقتصاد المصرى نفسه ، فقد أطلت بوادر ذلك التدهور منذ القرن الرابع عشر الميلادى ، وما أن حل القرن الخامس عشر الميلادى حتى اختفى تجار الكارم ، سدنه التجارة الشرقية من مسرح التاريخ (٢٢) . ولم يكن العيذابيون فى غفلة عما يدور حولهم من أحداث تتهدد مستقبلهم فمن ثم بدأوا ينظرون بعين الحقد والحسد الى جارتهم جدة فى العدوة الاسيوية وهى تنمو وتزدهر باضطراد تحت تشجيع ورعاية السلاطين المماليك رعاة وحماة عيذاب بالامس : ثم تخطوا ذلك الى مرحلة العمل السافر لحماية مصالحهم فعولوا على التدابير العسكرية للنيل من غريمتهم بالاغارة على قافلة حجازية كبرى ولكن الرد عليهم جاء حاسما وماحقا ، وانتهى الامر بتدمير الثغر من جراء حملة مشتركة من قبل حاكم سواكن والسلطان بارسباى فى حدود عام ١٤٢٦ م ، وفر من تبقى من أهل عيذاب الى سواكن ودنقلا(٢٣).ومن ثم استقر رأى االسلطان المماليكى على صرف النظر نهائيا عن عيذاب والتعويل على جده فشرع فى عام ١٤٣٨م فى تعمير ميناء جده وانزال حامية به ، كما يحدثنا المؤرخ المعاصر ابن حجر العسقلانى فى حوليات عام ٨٣١هـ / ١٤٢٧ – ١٤٢٨م : وفى رمضان توجه سعد الدين ابراهيم بن المرة الكاتب لاجل المكوس من تجار الهند بجدة فعمر بجدة جامعا وفرضة وصارت ميناء عظيمة ، وجهز السلطان أميرا يقال له أرنبغا من أمراء العشراوات ، وجهز معه خمسين مملوكا لدفع بنى حسين والقواد عن التعرض الى جدة والاعراض عن النهب (٢٤). ومنذ ذلك التاريخ تقلصت عيذاب الى مرسى صغير مغمور ربما استمر استخدامه بعض الوقت : فقد ذكرت

كآخر نقطة لبريد قوص نحو منتصف القرن الخامس عشر الميلادى(٢٥) ثم نجد لها ذكرا نحو نهاية القرن نفسه (٢٦) .

ومن جانب آخر فان اضمحلال عيذاب ونهايتها كفرضة للتجارة الشرقية ، بل نهاية البحر الأحمر كطريق لتلك التجارة كان أمرا واقعا بحلول القرن الخامس عشر الميلادى . فالى جانب نضوب مناجم المعادن النفيسة المحيطة بها ، وتحول طرق الحج والتجارة عنها ، واطرح سلاطين المماليك لها واستغنائهم عنها بجدة ، وبزوغ نجم سواكن الى الجنوب منها ، الى جانب هذه العوامل المحلية مجتمعة ، فقد كان العالم على أعتاب حقبة تاريخية بعيدة الاثر تجسدت فى عصر الاكتشافات الأوربية ، والتى كانت قد تبدت نذرها منذ بعض الوقت مؤذنة بتحولات كبر ى فى طرق التجار ة العالمية .

وقد درست عيذاب وعفت رسومها الى أن نبه عليها الأثرى : « ج . ثيودور بنت» والذى قام باكتشاف موقعها فى عام ١٨٩٦ م ونشر وصفا لأطلالها فى المجلة الجغرافية الملكية فى نفس العام(٢٧). وبعد ثلاثين عاما من ذلك التاريخ قام أثرى آخر هو : « ج . و . مرى » بحفريات أولية فى الموقع كشف فيها عن المسجد وصهاريج الماء ، كما توفر على قطع من العملات النحاسية والتى يعود تاريخ ضربها الى عهد الظاهر بترس وبعض قطع الخزف الصينى التى صنعت فى القرن الخامس عشر . ومن الأدلة التى تجمعت لدية قدر مرى عدد سكانها بألف وخمسمائة نسمة (٢٨) .

(١) الحد يث عن حياتها الدينية .

والحديث عن حياتها الدينية يكون على عدة وجوه أولها :

أ ــ الادارة الاسلامية :

الى جانب الوالى الذى درج أن يعينه حكام مصر الاسلامية ، كانت الادارة الاسلامية تنتظم عدة مناصب دينية نذكر منها خطة القضاء والخطابة والزكاة . . . الخ .

القضاء :ـ

مما لاشك فيه أن خطة القضاء كانت أكبر وأهم المناصب الدينية بعيذاب . وكانت دائرة عمل القاضى قد اتسعت وتشعبت المهام التى صارت توكل اليه مع تقدم عمر الامبراطورية الاسلامية (٢٩). والى جانب ذلك فان قاضى عيذاب كان ربما جمع بين عدة خطط سلطانية تكون عادة مفرقة فى معظم البلاد الاسلامية (٣٠). بل كانت هناك مهام فريدة من حقوق وظيفة قاضى عيذاب أفردته وميزته على غيره من القضاة فى سائر البلاد الاسلامية ، فقد ارتبط عمله ارتباطا وثيقا بحياة الثغر الدينية والتجارية . ولذلك كان يراعى فى اختياره غناؤه فى خدمة الحاج والتجار أكثر من أى اعتبار آخر بما فى ذلك مدى مقدرته الفقيهة (٣١) .

وقد تقلد منصب القضاء بعيذاب جماعة من الفقهاء وصلتنا تراجم بعضهم ، فمن أوائل من نعرف منهم أبا القاسم نوفل بن جعفر المنعوت بالمخلص الجد الأعلى للأدفوى والذى تولى الحكم بها فى عام ١١٣٦ م على أيام الفاطميين وظل يقيم بها الى أن توفى فى عام ١١٧٦م (٣٢). ومنهم ابن مسلم الأقصرى ، وكان تفقه على مذهب الامام الشافعى على يد الشيخ محمد مجد الدين القشيرى ، وكان واسع النعمة والثراء ، سمحا جوادا باكرام الوارد من حاج وتجار ، حتى اشتهر عنه ذلك بالناحية ، بل صار ذلك سببا لتولية القضاء ، وطالت مدته فى منصبه ، حيث مكث فيه قرابة الستين عاما الى أن توفى عام ١٢٨٦ (٣٣). وربما خلف الأقصرى على القضاء زين الدين أبو حامد محمد بن محمد العثمانى (نسبة الى عثمان بن عفان رضى الله عنه) المعروف بالسريس . كان فقيها على مذهب الامام الشافعى ، واشتغل بالفقه على الشيخ جلال الدين احمد الدشناوى وأجازه بالفتوى وسمع الحديث منه وكانت له مشاركة فى عدة فنون من العلم كالاصول والنحو والأدب ، مع معاناة الشعر . وكان قبيل خدمته بعيذاب تولى خطة القضاء بعدة مدن من بلاد الصعيد منها أدفوى وأسوان وقفط وقنا وهو . قال عنه الأدفوى : (وكان

حسن السيرة رضى الطريقة ، قائما بالمعروف والنهى عـــن المنكر) وكانت وفاته فى عام ١٣٠٥ م (٣٤) .

ومن قضاة عيذاب عبدالمنعم بن احمد بن عبدالمجيد التقى ، وكان يلى الخطابة أيضا ، وقد ظل يشغل منصبه قرابة ستين عاما الى أن توفى عام ١٣٣٢م وقد جاوز الثمانين ــ قال عنه الأدفوى : (كان فيه نفع للحجاج والوارد، قوى الحرمة، نافذ الكلمة) . وكان الى جانب ذلك يعالج الشعر (٣٥)

وهناك جماعة من الفقهاء تولوا قضاء عيذاب بالانابة منهم : محمد ابن اسماعيل بن عيسى أبى النضر القفطى ، وينعت بالتقى ، ويدعى بابن دينار سمع الحديث من عدة مشائخ منهم الحافظ المنذرى والحافظ أبى الفتح القشيرى وغيرهما ــ وكان فقيها على مذهب الامام الشافعى، توفى عام ١٣٠٢م(٣٦). ومنهم عبدالرحمن بن موسى الكندى الدشناوى المنعوت بالامين وكان فقيها شافعيا تقلب فى عدة مناصب دينية بالصعيد ، حيث أعاد بالمدرسة النجمية بقوص ، وتولى الامامة بجامعها ، وصحب الفقيه المعروف الشيخ مسلم زمانا ، ثم عاد الى بلاد النوبة ودخل اقليم التاكا ، ربما بغرض التكسب أو التبشير ، وتوفى هناك فى عام ١٣١٨م (٣٧) . ومنهم محمد بن محمد بن نصير المنعوت بالكمال ويعرف بابن الحسام القوصى ، قال عنه الأدفوى : كان فقيها مشاركا فى النحو ، قرأة على أبى الطيب . وقد تولى القضاء بعدة جهات بالصعيد ، منها دشنا وفاو والمرج وأعمالها ، وبها توفى عام ١٣٢٨م (٣٨) . وآخر من نعرفه منهم نوح بن عبد المجيد بن عبد الحميد القوصى المعروف بالزين وكان فقيها على مذهب الامام الشافعى ، ومثل من ذكرنا قبله فقد تولى القضاء بعدة بلاد من الصعيد قبل ولايته قضاء عيذاب ، كما باشر التدريس بقوص وتوفى عام ١٣٢٠ م (٣٩) .

من هذا النذر اليسير من التراجم الذى تيسر لنا نستطيع أن نستشف صورة واضحة المعالم لهذه الشخصية الهامة فى حياة الثغر .ولانعدو الحقيقة اذا قلنا أن القاضى كان أهم شخصية بالثغر . فقد سبق أن اشرنا الى أن دائرة

عمله قد اتسعت وتشعبت . ومن التراجم السابقة يلاحظ أن القاضى كان يختار من بين الفقهاء الذين تقلبوا فى عدة مناصب دينية فى بلاد الصعيد الأعلى نحو امامة مسجد أو ولاية قضاء أو تدريس . ويشير ذلك الى روابط دينية وثقافية وثيقة ووشيجة بين عيذاب وبلاد الصعيد الأعلى . وكانت قد انتظمت بلاد الصعيد نهضة فكرية كبرى منذ بداية القرن الثانى عشر الميلادى بفضل الازدهار والرواج الاقتصادى الذى صاحب تحول طرق التجارة العالمية الى البحر الأحمر . بل شارك عدد لايستهان به من أبناء الصعيد فى تلك النهضة التجـــارية بأن انخرطوا تجارا فى الكارم (٤٠) . وقد رصد لنا تلك النهضة الاقتصادية والعمرانية والثقافية التى انتظمت الاقليم الفقيه المؤرخ الأدفون فى كتابه المذكور والذى ترجم فيه لجماعة من أبناء الصعيد الذين نبغوا فى مجال العلوم الدينية والادبية والحكمية ، كما تعرض لخطط مدن الصعيد وأحوالهـــا العمرانية ومؤسساتها الدينية والعلمية . وكانت قوص قصبة ذلك الاقليم وقاعدته ،وقد وصفها بن جبير نحو نهاية القرن الثانى عشر الميلادى قائلا : « وهذه المدينة حفيلة الأسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة لأنها محطر الجميع ومحط للرحال ومجتمع الرفاق ، وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والاسكندريين ومن يتصل بهم»(٤١). كما وصفها مؤرخ الصعيد الأدفوى ، بأنها باب مكة واليمن والنوبة وسواكن والتاكا (٤٢). اشارة الى وثاقة اتصالها ببلاد السودان عموما الى جانب عيذاب ، بخاصة فى مجال التبادل التجارى .

ومن ناحية أخرى فان أغلب الفقهاء الذين تقلدوا هذا المنصب كانوا على مذهب الامام الشافعى . ومرد ذلك الى أنه بعد أن أعيد الحكم السنى بمصر بقيام الدولة الايوبية وزوال الفاطمية ، ظهر مذهب الامام الشافعى على غيره من المذاهب وذلك أن صلاح الدين الأيوبى بعد صرفه لقضاة الشيعة فوض القضاء لصدر الدين عبدالملك بن عيسى بن درباس المارانى الشافعى

فلم يستنب المارانى فى اقليم مصر الا من كان شافعى المذهب ، ومن ثم استبد الشافعيون بالقضاء وتشددوا فى مذهبهم الى أن أضطر السلطان بيبرس الى ادخال اصلاح جوهرى على النظام القضائى بتعيين أربعة قضاة يمثلون المذهب الأربعة وذلك عام ١٢٦٥م إلا أن ذلك لم يضعف من قـــوة المذهب الشافعى بمصر ، وظل ظاهرا بها على المذاهب الأخرى (٤٣) .

وينسب دخول المذهب الشافعى الى بلاد السودان تقليديا الى زمن الفونج(٤٤) وقد ثبت الان ان للفقيه الكندى الشافعى الداخـــل الى أقليم التاكا قـــد حمل لواء ذلك المذهب الى داخـــل البلاد قبيل عصر الفونج بزمن طويل . كما أن غلبة المذهب الشافعى على عيذاب ربمـــا تفسر لنا تمكن المذهب الشافعى ببلاد البحر الأحمر الى يومنا هذا .

وثم سمة أخرى غلبت أيضا على معظم الذين تولوا القضاء بعيذاب ألا وهى اشتغالهم بالأدب . وتلك صفة لم يختصوا بها دون علماء جيلهم ، فقد كان الجمع بين عدة فنون وعلوم مذهبا مألوفا بين رجال العلم فى ذلك الزمان . ولاشك أن تنوع معارف قضاة عيذاب وغزارة علومهم كان له حميد الأثر فى اخصاب حياة الثغر الفكرية والعلمية .

المسجد ، الامام ، الخطيب :

أول من ذكر مسجدها الرحالة الفارسى أبو معين ناصرى خسرو نحو منتصف القرن الحادى عشر الميلادى، فقال: «وبها مسجد جمعة»(٤٥). وقال عنه ابن بطوطة : «وبمدينة عيذاب مسجد ينسب للقسطلانى شهير البركة رأيته وتبركت به»(٤٦). وقد عثر الأثرى "مرى" على أنقاض هذا المسجد عند قيامه بحفرياته الأولية فى الموقع عام ١٩٢٦ م . ويبدو أن هذا المسجد كان المؤسسة الدينية الوحيدة بها ، وذلك أن المؤرخين والرحالة على كثرتهم لم يذكروا مؤسسات دينية غيرة كالأربطة ونحوها ، كما أن الحفريات الأولية لم تتوفر على أنقاض يمكن نسبتها الى تلك المؤسسات . ولذلك فان مسجدها كان الحلبة

الوحيدة للنشاط الدينى من سماع حديث وتدريس . . الخ . . وقد ذكر ابن بطوطة أنه شهير البركة كناية عمن أمه من كبار العلماء ورجال الدين .

ومن أوائل من تصدر للامامة والخطابة بمسجد عيذاب ناصرى خسرو والذى ذكر ان أهل عيذاب طلبوا منه القيام بتلك المهام ابان اقامتهبينهم ، فباشر ذلك لمدة ثلاثة أشهر . ويكشف قول ناصرى خسرو أن المسجد لم يكن له امام متفرغ آنذاك .

وربما أضيفت الخطابة بالمسجد أحيانا الى خطة القضاء كما هو الحال مع القاضى عبدالمنعم بن احمد بن عبدالمجيد التقى المتقدم الذكر . ولعل من أشهر من تولى الخطابة بمسجد عيذاب تفرغا يحى بن جعفر القفطى المعروف بخطيب عيذاب . وكان ليحى المذكور باع طويل فى علم الحديث وعليه سمع ومنه أخذ الشيخ قطب الدين بن القسطلانى المتقدم الذكر(٤٧). والى جانب هؤلاء النفر الذين ذكر المؤرخون ، فلابد أن عددا صالحا من رجال الدين والعلماء اختلف الى الخطابة والامامة بمسجد عيذاب وهم فى طريقهم الى الحج أو التجارة وماسقناه من خبر الرحالة الفارسى يسوغ ماذهبنا اليه . وربما تجدر الاشارة ونحن فى هذا الصدد الى أن بعض أهل عيذاب نبه له ذكر فى الأعمال المتصلة بخدمة المساجد ، منهم : بدرالدين حسن العيذابى رئيس المؤذنين بقلعة الجبل بالقاهرة المتوفى عام ١٣٩٤ م (٤٨) .

ومما تقدم يمكننا القول بأن مسجد عيذاب كان محور الحياة الدينية والفكرية بها ، فالى جانب شعائر الصلاة ، فان حلقات الحديث والتدريس وما يتصل بذلك من الأنشطة كانت تقام به ، وبه يقيم كبار العلماء والصالحين الوافدين على الثغر .

صاحب الزكاة : وهو منصب آخر فى هيكل الادارة الاسلامية بالثغر . وصاحبه هو الذى يقوم بجمع الزكاة من تجار الكارم والأهالى المحليين (٤٩). وممن تقلد هذا المنصب عمر بن الفاكهانى (٥٠) .

وهكذا يتجلى لنا بأن ادارة عيذاب الداخلية كانت اسلامية خالصة بينما انفرد ملوك البجة بالسيادة الاسمية قانعين بما يحمل اليهم من مال ومتاع من قبل حكام مصر الاسلامية فكان أن خلصت عيذاب للمسلمين فوسموها بطابعهم ادارة ونظاما وعمرانا .

(ب) الحج :

والحج هو الدعامة الثانية لحياتها الدينية ، وقد أشرنا فى المقدمة الى أن طريق الحج لبلاد شمال افريقيا ومصر قد تحول الى عيذاب نحو منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، ظـل الحـاج يستخدمه منذ ذلك الحين حتى خراب عيذاب فى النصف الاول من القرن الخامس عشر الميلادى ، وان تناقصت أعدادهم بعد فتح الطريق البرى بين مصر والحجاز .

وبسبب ذلك صارت رعاية الحاج بعيذاب من أخص اهتمامات حكام مصر الاسلامية ، وقد رأينا فيما تقدم أن القيام بأمر الحاج كان من أهم ، الشروط فى اختيار القضاة للثغر . وعلى أيامه وضع السلطان صلاح الدين الايوبى ضريبة الرأس التى كانت مفروضة على الحاج المغربى بعيذاب والتى كانت من رسوم الفاطميين . (٥١)

وما ان صارت عيذاب معبرا للحجاج حتى صارت مركزا هاما لسماع الحديث يضارع مراكز السماع الكبرى بالامبراطورية الاسلامية . وليس تفهم ذلك بعسير ، فقد جرت العادة فى ذلك الزمان ان يحط كبار الفقهاء ورجال العلم رحالهم فى المراكز الاستراتيجية فى طريق قوافل الحج طمعـاً فى الاجتماع بغيرهم من رجال الحديث والعلماء (٥٢). فكان للحجاج صادرين وواردين نشاط دينى واسع بعيذاب . بل ان حركة الحجاج وما يصاحبها من نشاط فكرى واقتصادى صارت ذات اهمية بالغة لاغلب بلاد الصعيد ، يؤكد لنا ذلك أبيات قالها الشاعر القوصى احمد بن ناشىء عندما منع السلطان المماليكى الحج عن طريق عيذاب فى حدود عام ١٢٨١ م ، ربما لاضطراب الاحوال بالثغـر بسبب تحرش القبائل المحلية ، ثم عاد وأمر بإطلاقه (٥٣) :

يا ثغـر عيـذاب إبتسـم صـدر الطريق لك إنشـرح
تاللـه لـو وزن النبـى بـكل مخلـوق رجـح

فهناك جملة من العلماء النابهين الذين أقاموا زمانا بالثغر صادرين وواردين من الحجـاز ، فكان إن تيسرت لهم سبل المشاركة فى حياته الدينية والفكرية فقد تقدم ان الداعى الفاطمى ناصـرى خسـروا أقام بعيذاب لمدة ثلاثة أشهر وهو فى طريقه للحج من مصر ، وانه باشر الخطابة بمسجدها بالتماس اهلها ومنهم الامام أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الحباب السعدى ، والذى كان فقيها رحالة فى طلب الحديث ، وصنف عدة كتب ، توفى بعيذاب فى طريق عودته من الحج عام ١١٦٠ م (٥٤). ولعل اشهر من دخل عيذاب من الحجاج الامام أبو الحسن على بن عبد الله الشاذلى الصوفى مؤسس الطريقة الشاذلية . وكان اتخذ الأسكندرية موطناً ، وكان يخرج منها كل عام الى الحج عن طريق عيذاب الى أن توفى صادرا من الحجاز ودفن بموضع قريب مـن عيذاب يعرف بحميثرا وذلك فى عام ١٢٥٨م (٥٥) . ومنهم الامام الكبـير أبو حيان محمد يوسف الأندلسى النحوى(٥٦). دخل أبوحيان عيذاب فى طريق عودته من الحج وسمع بها ، وقد أوردهاضمن قائمة البلاد التى سمع بهـا حيث يقول : « سمعت بغرناطة ومالقة وبلش والمرية وبجاية وتونس والإسكندية ومصـر والقاهرة ودمياط والمحلة وطهرمس والجيزة ومنية ابن خصيب ودشنا وقنا وقوص وبلبيس وبعيذاب من بلاد السودان وينبع ومكة شرفها الله تعالى وجدة وأيلة»(٥٧). وفيما أورده أبوحيان هذا أبلغ دليل على أن عيذاب قد صارت فى زمانه ذلك فى مصاف أعظم مراكز الحديث فى البلاد الاسلامية تشد الى حلقات مسجدها الرحال وتضرب اليها أكباد الابل . وهنا من الأدلة مايسوغ الزعم بأن ابا حيان بقى قدرا صالحا من الزمان بعيذاب ، فقد ذكر المقرى من ضمن مؤلفاته كتابا مترجما بنور الغبش فى لسان الحبش (٥٨) . وعلى الأرجح فإنه صنف هذا الكتاب ابان اقامته بعيذاب اذ كان لابد له من من البقاء مدة بتلك النواحى ليتعرف على ذلك اللسان . ثم انه تزوج بجارية سوداء

ولدت له إبنه حيان الذى يكنى به ، والتى قال يمدحها (٥٩) :

جننت بها سوداء لون وناظر ... وياطالما كان الجنون بسوداء
وجدت بها برد النعيم وانيلك ... فؤادى منها فى جحيم ولأواء

بل وقف مدافعا عن اللون الأسود بفضل زوجته تلك ، حيث يقول فى موضع فى أبيات طريفة (٦٠) :

لنا غرام شديد فى هوى السود ... نختارهن على بيض الطلا الغيد
لون به أشرقت أبصارنا وحكى ... فى اللون والعرف نفح المسك والعود
لاشيىء أحسن من آس تركبه ... فى آبنوس ولا أشفى لمبرود
لانهو بيضاء لون الجص واسم الى ... سوداء حسناء لون الأعين السود
فى جيدها غيد فى قدها ميد ... فى خدها صيد من سادة صيد
من آل حام حمت قلبى بنار جوى ... من هجرها وابتات عينى بتسهيد

ويغلب الظن أنه بنى بأم ولده تلك ابّان اقامته بعيذاب وعموما فهناك دلائل وقرائن اخر فى سيرته ترجح ماذهبنا اليه (٦١) .

اذن فنحن لانعدو الحقيقة اذ ادّعينا ان موسم الحج كان بالنسبة لعيذاب فى معناه ماكان سوق عكاظ لمكة فى الجاهلية ، وبمعنى آخر فقد كان موسم الحج بالنسبة لها تظاهرة دينية أدبية كبرى . وقد اسلفنا ان موقعها فى نهاية طريق قوافل الحج قد جعلها مركزا هاما من مراكز سماع الحديث مما حدا بعدد صالح من العلماء والفقهاء ان يقيم بها بصفة دائمة بغرض الافادة والإستفادة فقد ذكر بن بطوطه أنه وجد بها من الفقهاء الشيخ الصالح موسى والشيخ المسن محمد المراكشى والذى زعم انه من سلالة المرتضى صاحب مراكش (٦٢) . وترجم الأدفودى للشيخ اسماعيل بن عبدالرحيم العسقلانى المحتد ، وكان فقيها على مذهب الامام الشافعى ، فأقام بعيذاب مدة طويلة وتزوج بها ، ثم عاد الى أدفو وتوفى بها عام ١٣٢٧ م (٦٣) .

(ج) التجـــــارة :

والتجارة هى ثالث الدعامات التى دارت عليها حياتها الدينية . فالتجارة لم تكن أقل خطرا من الحج فى إثراء حياة الثغر الدينية والأدبية . فالحج نفسه كما هو معروف سوق كبرى لتبادل السلع وعقد الصفقات التجارية . الا أن النشاط التجارى المنبثق من الحج لم يكن يمثل سوى شطر ضئيل من الحيـــاة التجارية بعيذاب ، فقد كان عصب ذلك النشاط ماعرف بالتجارة الشرقية المتمثلة فى منتجات الهند وجزر الهند الشرقية من بهار وأفاويه . وكـــان سدنة تلك التجارة جماعة عرفت بتجار الكارم(٦٤) ارتبط ظهورهم بإزدهار عيذاب وخبا ذكرهم بأفول نجمها .

وقد أسلفنا القول ان ازدهار عيذاب كان وليد اهتمام حكام مصـــر الاسلامية بالحركة التجارية فى البحر الأحمر وثمرة من ثمراته ، فكان أن كفلوا لها الرعاية والحماية ووفروا لها الادارة القادرة ، فقد تقدم أن أحـــد شروط إختيار قاضى عيذاب هر مدى قدرة المرشح على القيام بأمر الحجاج والتجار (٦٥). ومما يشير أيضا الى مدى اشتغال القاضى بأمر التجار ومصالحهم نادرة أوردها عنه التاجر الكارمى أحمد بن عبد الوهاب الاسنائى حينما سأله قاضى قوص عن قاضى عيذاب ، فقال « قلمه لايجف ، وعلامته الحمد لله ، وبه أسف (٦٦)» ولايخفى أن عبارة « قلمه لايجف » كناية عن كثرة مشاغله وتعددها ، ولعل مراد ذلك الى اشتغاله بأمر التجار لأن الحج نشاط موسمى كما ان عيذاب ذات ساكن قليل لا يستقيم أن تستأثر خصوماتهم بالكثير من وقت القاضى .

والى جانب القاضى اتخذ حكام مصر الاسلامية عدة اعمال إختص كل منهم بمهم من شئون جماعة التجار الكارمية : « فمنهم متولى شهادة الكارم وكان يقوم بالشهادة عنهم فى مجلس القاضى. وممن تقلد هذا المنصب الفقيه الشافعى شمس الدين على بن محمد بى أبى بكر الانصارى المتوفى عام ١٣٤٠م

وكان قد سمع الحديث عن مشائخ ، منهم : الدمياطى وابن دقيق العيد ، كما تفقه على العلم العراقى ، قال عنه الحافظ ابن حجر : « وشارك فى الفضائل ، واختصر الروضة وولى مدرسة ابن السديد بقوص ونسخ بخطه كثيرا من الفقه واللغة والتصوف ، وكان له نظم حسن ، فمنه فيمن على أنفه خال :

ان الذى برأ الحواجب صاغهـــا نونين فى وجـــه الحبيب بلطفه
فتنـــازع النونان نقطة حسنـــة فأقرها ملـــك الجمال بأنفه(٦٧)

وقد ذكر المفضل بن ابى الفضائل عاملا آخرا «كان مشرفا على مايرد من التجار ، وممن تولاه رجل يعرف بابى جلى قتله الملك داؤد عند إغارته على الثغر (٦٨). كما ان صاحب زكاة عيذاب كان مسئولا عن جمع الزكاة من تجار الكارم ، حيث نصت قوانين الدولة على ان تؤخذ منهم زكاة سنوية فى كل بلدة يتجرون فيها(٦٩). وقد كان لتجار الكارم أنفسهم مؤسسات خاصة بهم ، فقد أقاموا فنادق للكارم على طول الطريق الممتدة من المحيط الهندى الى البحر الابيض المتوسط (٧٠). بل وكان لهم عدد من العمال وكلاء وغيرهم يقيمون بصفة دائمة بالثغر(٧١).وكانوا ينفقون أموالاً طائلة على تشييد المنشآت الخيرية والدينية من مدارس وخـــانات .... الـــخ (٧٢) كما شاركوا مع غيرهم من التجار فى النشاط الأدبى والفكرى ، فقد كان كثير من التجارله باع طويل فى الفقه والأدب : ومن أمثلة ذلك ما أورده المقرى فى نفح الطيب فى ترجمة الفقيه أبى حيان المتقدم الذكر : وقال : ابن رشيد : حدثنا أبو حيان قال حدثنا التاجر أبو عبد الله البرجونى بمدينة عيذاب من بلاد السودان ويرجونه قرية من قرى دار السلام ، قال : كنت بجامع كولم من بلاد الهند ومعنا رجل مغربى اسمه يونس،فقال لى : أذكر لنا شيئا ، فقلت له : قال على رضى الله تعالى عنه : اذا وضع الانسان فى الكريم أثمر خيرا ، واذا وضع فى اللئيم أثمر شرا ، كالغيث يقع فى الأصداف فيثمر الدر ويقع فى فم الأفاعى فيثمر السم ، فما راعنا الاّ ويونس المغربى قد أنشد لنفسه :—

صنائع المعروف ان أودعت عند كريم زكت النعمـــا
وان تكن عند لئيم غـــدت مكفورة مـــوجبة اثمـــــا
كالغيث فى الأصداف در ، وفى فم الأفاعى يثمر السمـــــا

قال ابوعيان فلما سمعت هذه الابيات، نظت معناها فى بيتين وهما :ـ

اذا وضع الانسان فى الحب لم يفد
سوى كفره والحر يجزى به كفرا
كغيث سقى أفعى فجادت بسمهـــا
وصاحب أصدافا فأثمـــرت الدرا(٧٣)

الاتصال التجارى بداخل البلاد :

هناك من الأدلة ما يبيح الجزم بأن عيذاب كانت على اتصال تجارى وثيق بمملكتى المقرة وعلوة . فقد ذكر الجغرافى المعروف اليعقوبى نحو نهاية القرن التاسع ان العاج كان احدى السلع التى تشحن من ميناء عيذاب الى جانب التبر وان هناك طريقا للقوافل بين وادى العلاقى وعلوة(٧٤) كما ذكر ابن عبد الظاهر فى تشريف الأيام ان رسل آدر صاحب مملكة الأبواب قد ساروا الى القاهرة عن طريق عيذاب لعداء بين ملك دنقلا وصاحب الأبواب(٧٥) . كما تقدم ان ابن جبير وابن بطوطة أكدا أن العنصر السائد بعيذاب هو العنصر المحلى من بجة ونوبة .(وقد أشار ابن جبير الى النوبة بلفظة حبش) . بل ان بعض عمال الثغر آنذاك ربما تم اختيارهم من العناصر المحلية ، فقد ذكر المقريزى فى النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى أنه التقى بقاضى عيذاب بالقاهرة وكان أسود اللون٧٦.ويجب أن لا ننسى أن سقوط مملكة المقرة على أيدى المسلمين فى الشطر الأول من القرن الرابع عشر الميلادى واسلام عدد لا يستهان به من أهلها قد هيأ من الظروف والملابسات ما يسر ووثق الاتصال التجارى والثقافى بين دنقلا وعيذاب . فقد ذكر ليو الأفريقى ان شطرا من أهل عيذاب فر الى دنقلا بعد أن خربت القوات المماليكية والسواكنية الثغر (٧٧). ويغلب الظن أن

الشطر الذى فر الى دنقلا قوامه أهالى المقرة الذين كانوا مقيمين بالثغر كتجار ووكلاء ، فكان من الطبيعى أن يمموا شطر وطنهم بعد خراب عيذاب .

ومن جانب آخر فأن النوبيين لم يكونوا كما سلبيا فى قيام ذلك الاتصال التجارى وتكثيفه واتصاله . فقد بادرت قوافلهم وسفنهم للاتجار مع مدن الحجاز (٧٨) وأسوان (٧٩) وقوص (٨٠)

وبينما ليس ثمة بين أيدينا من الأمثلة الا اليسير لرجال ساروا من عيذاب الى داخل البلاد (٨١) ، الا أنه من الطبيعى ان نفترض أنه بيسورة الاتصال التجـارى بداخل البلادفان عـددا لا يستهان بـه من رجـال الدين والعلماء قد اصطحبوا القوافل التجارية الى الداخل يحدوهم طلب اليسار والطمع فى الوفرة أو تسوقهم روح الدعوة الى الاسلام والتبشير بمبادئه . ومن المسلم به ان الاتصال التجارى كان أوفر حظا وأبعد أثراً فى نشر الثقافة العربية الاسلامية فى بلاد النوبة من غيره من روافد الاتصال .

(٢) حياتها الأدبيـة :-

كانت حياة الثغر الأدبية هامشا لحياتها الدينية ، فهى فى المقام الأول وليدة وربيبة لها . وكما أسلفنا القول فأن عمال الادارة الاسلامية بالثغر كان أغلبهم على حظ وافر من الأدب وأسبابه بخاصة الشعر الذى برع فيه عدة منهم وقد سبق التعرض لشطر من أشعارهم ، كما شارك بعضهم فى التأليف والتصنيف .

والى جانب عمال ادارتها الاسلامية فان عددا لا يستهان به من الشعراء ورجال الأدب وجد طريقه الى الثغر لسبب أو لآخر . فهناك من قصدها فى عمل رسمى مثل الفقيه الأديب المؤرخ عمارة اليمنى والذى بعثه أمير مكة فى سفارة الى البلاط الفاطمى (٨٢)، وقد خلد دخوله اليها فى أبيات يشكو فيها حاله وسوء ما لاقى بعيذاب ، وفى ذلك يقول :

لم ترض عيذاب انى مسنى نصـــب من أهلها وجرى لى منهم شغب
حتى لقيت بقوص لا سقت أبـــدا أكناف قوص ولامن حلها السحب

وهناك من قصدها فى حاجة خاصة كأبى الفتوح نصر الله بن عبد الله المعروف بابن قلاقس السكندرى(٨٣) . وكان ابن قلاقس قد سار الى اليمن فى حدود عام ١١٧٠م ومدح ملوكها وكبراءها بخاصة أبا الفرج ياسر بن أبى الندى بلال بن جرير المحمدى وزير آل زريع ملوك عدن ، فأجزل له ياسر العطاء ، فأقبل الى مصر مثقلا بأنعامه ، ولكن الركب الذى كان يستقله غرق فى مياه جزيرة الناموس بالقرب من باضع ، فعاد الى اليمن ومدح الوزير مرة أخرى وأنشده قصيدته التى أولها :

صدرنا وقد نادى السمـــاح بنا ردوا فعدنا الى مغناك والعـــود أحمد

فعوضه الوزير وزاد فى اكرامه ، فيمم ابن قلاقس مرة أخرى شطر مصر ولكنه مات بعيذاب عام ١١٧١م . ولعل من أقيم ما خلفه ابن قلاقس قصيدته التى وصف فيها المراسى مابين عدن وعيذاب والتى أورد ياقوت الحموى بعضا منها فى معجمه الجغرافى المعروف (٨٤) .

وهناك من الشعراء والأدباء من وفد على عيذاب قسرا مؤدبين بالنفى والتغريب من قبل حكام مصر الاسلامية . والنفى والتغريب الى جزر ومراسى العدوة الأفريقية بغرض التأديب لكبار رجال الدولة والأدباء والفقهاء المغضوب عليهم تقليد معروف منذ صدر الاسلام(٨٥) . وقد وقع اختيار الحكام المسلمين على تلك البلاد دون غيرها لخمولها ووخامة هوائها وانقطاعها عن العمران وشظف عيشها ، وقد خلد لنا الشعراء ذلك فى أشعارهم ، فقد تقدم ما قاله عمارة عن عيذاب ، وأنشد ابن قلاقس فى دهلك وصاحبها أبى السداد مالك أبى الفياض ، وكان قد وفد عليه (٨٦) :

وأقبـــح بدهلك من بلـــدة فكل امرىء حلها هالـــك
كفاك دليـــلا على أنهـــا جحـــيم وخازنهـــا مالـــك

وقد أبقى حكام الامبراطورية الاسلامية من أمويين وعباسيين على ذلك التقليد.(٨٧) ثم انفرد حكام مصر الاسلامية بالحفاظ على ذلك التقليد، فاستخدم الفاطميون عيذاب وسواكن حبوسا ، فاقتفى الأيوبيون والمماليك آثارهم وساروا سيرتهم فى ذلك. (٨٨) وقد كان لذلك آثار محمودة فى تلك البقاع . فمن أمثلة ذلك أنه نمى بين الحكام المحليين طلب للأ دب وميل الى أهله نخص بالذكر منهم مالك بن أبى الفياض صاحب دهلك (٨٩) .

وممن نفى الى عيذاب الشاعر المفلق نشو الدولة على بن مفرج المنجم المعروف بابن المنجم ، وكان رفيقا لابن قلاقس المتقدم الذكر ، وكان ابن المنجم هذ اقد تولى « ضمان الصابون والملاهى » فى الدولة الأيوبية ، فظلم وعسف ، فجأر الناس بالشكوى منه ، فأدب بالنفى الى عيذاب (٩٠) . وكان مولده عام ١١٥٤م وتوفى فى حدود عام ١٢٢٣م . ولم يخلف لنا ابن المنجم أشعارا فيها ذكر لعيذاب فى الكتب المطبوعة ، وربما كان لها ذكر فى ديوانه المخطوط والذى لم أتوفر عليه . وفى الغالب الأعم أنه ذكر عيذاب فى أشعاره ، فلطالما تعرض الشاعر المنفى والمغترب لذكر مغتربه ومنفاه .

خـــاتمـــة :

كانت عيذاب عند ابتداء أمرها منفذا لمستخرجات مناجم المعادن النفيسة من ذهب وزمرد فى اليابسة والأحجار الكريمة من لؤلؤ وأصداف فى مياه البحر ، وربما اعتنت بشطر ضئيل من المنتجات النوبية . وبحلول الحقبة الاسلامية قيض لها أن تنمو وترتقى الى مصاف الموانىء العالمية كفرضة للتجارة الشرقية بفضل نجاح الخلفاء الفاطميين فى تحويل طريقها من الخليج الفارسى الى البحر الأحمر ، ويتعذر استخدام الطريق البرى عبر سيناء تحول طريق الحج اليها ، وقد خلق تمازج الحركتين الدينية والتجارية نشاطا فكريا دينيا وأدبيا واسعا ارتقى بعيذاب الى مصاف أعظم المراكز

الفكرية بالامبراطورية الاسلامية ، ولم ترتبط حياتها الفكرية تلك ببلاد الصعيد الأعلى والحجاز وارخبيل دهلك فحسب ، فقد كان فى الوافدين اليها من رجال العلم والأدب من جميع بقاع العالم الاسلامى قناة متصلة ورافداً دائما كفل لها التجدد وجنبها الركود . وقد تيسرت لهذه الحياة الفكرية المزدهرة سبل الاتصال بداخل بلاد النوبة ، الا أن مسار ذلك الاتصال يصعب تحديد معالمه التاريخية ، وسبر آثاره بدقة وذلك لشح المصادر وغثاثة ما جادت به ، ولكن ليس هناك أدنى شك فى أن ذلك الاتصال الباكر قد مهد الطريق وارتاد المنهج والأسلوب الذى سارت عليه قافلة الثقافة العربية الاسلامية فى القرون التالية .

هـــوامـــش

(١) للاستزادة من تاريخ عيذاب، يمكن الرجوع الى الدراسات التالية، مرتبة على حسب تاريخ ظهورها :

J. Teeodore Bent, A Visit to the Northern Sudan, The Geographical Journal, VII, (January to June 1896), 335–356; G.W. Murray, Aidhab, Geographical Journal, (XVIII, No. 3., (September 1926), 235–240; A. Paul, Aidhab: a Medieval Red Sea Port, SNR,XXXVI, Part 1, (June 1955,) 64–70; أحمـــد الســـيد دراج : عيذاب ، مجلـــة نهضة أفريقيا – وزارة الثقـــافة – القاهرة (١٩٥٨) العدد التاسع والعاشر (يوليو – أغسطس) also :C.H. Becker, El, s.v. Aidhab; H.A.R. Gibb, El, s.v. Seedhab, Y.F. Hassan, The Arabs and the Sudan, Edinburgh, 1967, 66etseq.

(٢) على باشا مبارك : الخطط الجديدة لمصر القاهرة – بولاق – (١٣٠٥) ج–١٣–ص: ٢٠–ذكر على مبارك (ج–١٤–ص ٥٦) ان عيذاب تقع فى محل مدينة بيرنيس القديمة (برنيقة) وهذا خطأ فبرنيس تقع عند رأس بناس على خط ٢٣ درجة و ٥٥ دقيقة – أما عيذاب فتقع جنوب رأس أبو فاطمة على خط ٢٢ و ٢٠ دقيقة .

(٣) أحمد بن على المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط) طبعة بولاق – (غ . م) جزءان – الجزء الأول – ص ٢٠٢.

(٤) أبو عبد الله محمد بن محمد – الشريف الإدريسى : نزهة المشتاق فى إخـــتراق الآفاق – تحقيق E. Cerulli وآخرون – روما – نابلى (١٩٧٠) – المجلد الثانى – ص ١٣٤ .

(٥) B. Lewis, The Fatimids and the route to India, Revue de la Fauclte des Sciences Economiques de l'Universite d'Istanbul, Nos 1– 4, (1949–1950), pp. 50–54.

(٦) أبو معين ناصرو خسرو – ســـفرنامة – ترجمة C. Schefer باريس (١٨٨١) ص : ١١٧ .

(٧) الشريف الإدريسى : ص ١٣٥ ، أبو الحسن محمد بن احمد بن جبير تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار – بيروت (١٩٦٨) ، ص ٤٣ ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجى المعروف بأبن بطو طة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأمصار وعجائب الأسفار ، القاهرة (١٩٦٧) – الجزء الأول – ص ٣٠ .

(٨) ابن جبير ص ٤١ .

(٩) نفسه (idem)

(١٠) نفسه : ص ٤٣ .

(١١) المصدر السابق ص ٤١ .

(١٢) الشريف الادريسى : ص ١٣٥ .

(١٣) ابن جبير ص ٤٣ .

(١٤) نفسه ص ٤٤ .

(١٥) ابن بطوطة ص ٣٠ .

(١٦) ابن جبير ص ٤١ .

(١٧) ابن بطوطة ص ٣٠ .

(١٨) المقريزى : اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء – ٣ أجزاء تحقيق جمال الدين الشيال ومحمد حلمى محمد أحمد – القاهرة (١٩٦٧–١٩٧٣) ج – ٣ – ص ٥٨ .

(١٩) محمد بن سالم بن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب تحقيق جمال الدين الشيال – القاهرة (١٩٥٧) ج – ٢ ص : ٣١–٣٢

D. Newbold, The Crusades in the Red Sea and the Sudan, SNR, XXVI, 2, (1945), 213–217.

(٢٠) المفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد تحقيق E. Blochet باريس (١٩١١) ج – ٢ – ص ٢٢١ .

(٢١) المقريزى : السلوك الى معرفة دول الملوك ــ تحقيق محمد مصطفى زيادة زيادة وآخرين ، القاهرة (١٩٥٦)الجزء الأول القسم الثانى ص :٥٠٦، ٥٥٠ ، ٧٠٠ ، الجزء الثانى القسم الأول ص : ١٦٢ ، ١٩٤ .

(٢٢) Subhi Labib, Egyptian Commercial Policy in the Middle Ages, in "Studies in the Economic History of the Middle East", ed, M.A. Cook, London, (1970), pp. 63–77, esp. p. 77; E. Ashtor. The Karimi Merchants, JRAS, (April, 1956), pp. 45–56, esp. p. 54.

(٢٣) Jean– Leon l'Africin, Description de l'Afrique, ed., tr. A. Epaulard, Paris, (1956), Premcire Patie, p. 485.

(٢٤) الحافظ أحمد بن على بن حجر : انباء الغمر بأنباء العمر ــ تحقيق حسن حبش ــ القاهرة (١٩٦٩–١٩٧٢) ج ــ ٣ ص ٤٠٤ .

(٢٥) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى ، زبد كشف الممالك وبيان الطــرق والمسالك ــ تحقيق Paul Ravaisse باريس (١٨٩٤) ص ١١٨ .

(٢٦) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ــ القاهرة (١٩٣٤) مجلد –٢–ج–٣– ص : ٢٣٠ .

(٢٧) Bent, op. cit.

(٢٨) Murray, op. cit. p. 239. قــدر ناصرى خسرو عــدد سكان عيذاب بخمسمائة نسمة عند زيارته لها فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، والثغر لما يبلغ قمة ازدهاره العمرانى بعد . وعليه يكون تقدير « مرى » غير بعيد عن الحقيقة . ولكن مما لا شك فيه أن عدد السكان كان يربو على تقدير « مرى » فى مواسم الحج .

(٢٩) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ــ دار البيان ــ بيروت ــ (غ . م) الجزء الأول (المقدمة) ص : ٢٢١–٢٢٢

(٣٠) جعفر بن ثعلب الأدفوى : الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ــ المطبعة الجمالية ــ القاهرة (١٩١٤(ص ١٨٤ .

(٣١) المصدر السابق : ص ٣٦٠–٣٦١ .

(٣٢) المصدر السابق – ص ٣٩٣ .

(٣٣) المصدر السابق : ٣٦٠–٣٦١ – ناصر الدين بن الفرات تاريخ الدول والملوك – بيروت (١٩٣٦–١٩٤٢(ج–٧–ص ١٢ :

(٣٤) الأدفوى – ص ٣٥٧–٣٥٨ .

(٣٥) المصدر السابق : ص ١٨٤ .

(٣٦) المصدر السابق : ص ٢٧٩ .

(٣٧) المصدر السابق – ص ١٥٦. الفقيه الكندى من أوائل رجال الدين ذوى المكانة الذين ساروا الى داخل البلاد، ولم يكن اختياره لاقليم التاكا بمحض الصدفة . فهو من أوائل الأقاليم السودانية التى حظيت بوجود عربى اسلامى ذى شأن وخطر . فنحو منتصف القرن العاشر الميلادى كان على الاقليم ملك مسلم يتكلم العربية الا أنه فى طاعة ملك علوة وببلاده كثير من المسلمين يختلفون بالتجارات الى مكة – ابن حوقل صورة الأرض – مكتبة الحياة – بيروت (غ . م) ص : ٦١ .

(٣٨) الأدفوى – ص : ٣٦٢ .

(٣٩) المصدر السابق – ص ٣٩٢ .

(٤٠) المصدر السابق : ص ٤٦ ، ٢١٤ ، ٢٧٤ ، ٣٥٣ ، ٣٦٢ .

(٤١) ابن جبير – ص ٣٧ .

(٤٢) الأدفوى – ص ٨ ، ابراهيم بن محمد بن أيدمر الشهير بابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الأمصار – تحقيق Vollers القـاهرة (١٨٩٣) ص ٢٨ ، على باشا مبارك –ج–١٤–ص : ١٢٨ وما بعدها .

(٤٣) المقريزى : الخطط ٢–٣٤٣ ، ابن حجر العسقلانى : رفع الاصر عن قضاة مصر – تحقيق : حامد عبد المجيد – القاهرة (١٩٦١) ج–٢–ص ٣٦٧ : حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن : النظم الإسلامية القاهرة (١٩٧٠) ص ٣٠٧ .

(٤٤) يوسف فضل حسن : بواكير الدعوة الإسلامية والثقافة العربية فى السودان ــ فى : دراسات فى تاريخ السودان ــ الجزء الأول ــ الخرطوم (١٩٧٥) ص ٦٤ــ٧٨ ــ خصوصا ص ٦٩ــ٧٠ .

(٤٥) ناصرى خسرو ــ ص ١١٧ــ١١٨ .

(٤٦) ابن بطوطة ــ ص ٣٠ ويغلب ظنى أن القسطلانى المذكور هو الشيخ أبو البركات عمر بن محمد التوزرى القسطلانى امام مقام المالكية بالحرم الشريف . ولد عام ١١٧٦م وتوفى عام ١٢٤٦ م . انظر : تقى الدين الفاسى : العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ــ تحقيق : فؤاد سيد القاهرة (١٩٦٦) ــ ج ــ ٦ ــ ص ٣٥٨ــ٣٦٠ ، وقد خلفه على الامامة ابنه ضياء الدين محمد والذى ولى التدريس بعدة مدارس بمكة الى جانب ذلك ، وكان له شعر جيد ، وتوفى ضياء الدين عام ١٢٦٥ ، وخلفه على الامامة ابنه احمد ــ انظر : تقى الدين الفاسى ج ــ ٢ ــ ص ٢٣٠ــ ٢٣٦ . وأسرة آل القسطلانى أسرة شهيرة أصلها من توزر بالمغرب هاجر عدد من أفرادها الى المشرق حيث صار لهم ذكر ونباهة ــ فالى جانب من ذكرنا نبغ منهم أبو العباس أحمد بن على القسطلانى والذى تولى التدريس والفتوى زمانا بمصر ، ثم جاور بمكة وبها مات عام ١٢٣٩ ــ انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان ــ تحقيق احسان عباس ــ بيروت (١٩٦٨) ج ــ ١ ــ ص ١٩٠ ــ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ــ تحقيق : أحمد زكى ــ القاهرة (١٩٢٩) ــ ج ــ ٦ ــ ص : ٣١٤ ، عبد الحى بن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ــ بيروت (غ . م) ــ ج ــ ٥ ــ ص : ١٧٩ ، ونبغ لأبى العباس هذا ابنان أحدهما قطب الدين أبو بكر محمد الذى تولى مدرسة الحديث الكاملية بمصر ، وكانت لقطب الدين هذا صلة وثيقة بعيذاب تتصل بسماع الحديث ، وتوفى عام

١٢٨٧ – انظر – ابن تغرى بردى – ج–٧–ص ٣٧٣ ، محمد بن شاكر الكتبى : فوات الوفيات – تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد القاهرة (١٩٥١) –ج–٢–ص ٣٦٦–٣٦٨ ، الأدفوى : ص ٤٠٧ ، الحنبلى –ج–٥–ص : ٣٩٧ ، أما الآخر فهو ابنه تاج الدين أبو الحسين على والذى تولى كأخيه مدرسة الحديث الكاملية وتوفى عام ١٢٦٧م – انظر ابن تغرى بردى : ج–٧–ص : ٢٢٣ .

(٤٧) الأدفوى – ص ٤٠٧ .

(٤٨) ابن الفرات – مجلد -- ٩– جزء ٢– ص ٣٩٠ .

(٤٩) Labib, op. cit., p. 74. وأول ذكر لصاحب الزكاة ببلاد البجة جاء فى نصوص اتفاقية أبرمت بين المسلمين والبجة على أيام الخليفة المأمون العباسى وملك البجة كنون بن عبد العزيز على اثر هزيمة البجة على أيدى القوات العباسية . فألزمت الاتفاقية ملك البجة بالسماح لعمال أمير المؤمنين بدخول بلاد البجة لجمع الصدقات، من مسلميهم (المقريزى : الخطط –ج–١–ص ١٩٦) .

(٥٠) محى الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور – تحقيق مراد كامل ومحمد على النجار – القاهرة (١٩٦١) ص ١٧٠–١٧٢ .

(٥١) ابن جبير : ص ٢٨ ، عبد الرحمن بن اسمعيل المقدسى أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين – القاهرة – (١٩٦٧) –ج–٢–ص : ٣ .

(٥٢) من أشهر المدن التى صارت مركزا لسماع الحديث لوقوعها على طريق الحج مدينة الاسكندرية – أنظر : جمال الدين الشيال : أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى – القاهرة (١٩٦٥) – ص ١٣٠ وما بعدها ، ص١٨٩ ومابعدها ، محمد عواد حسين : تاريخ الاسكندرية وحضارتها منذ أقدم العصور – القاهرة (١٩٦٣) ص : ٣٢٤–٣٢٦ .

(٥٣) الأدفوى : ص ٧٨ ، ابن الفرات –ج–٨–ص : ٧٣–٧٤ .

(٥٤) المقريزى : اتعاظ الحنفاء –ج–٣–ص : ٢٤٥ .

(٥٥) ابن بطوطة : ص : ٣٠ ، الشيال : ص ١٨٩ .

J.S. Trimingham, Islam in the Sudan, London, (1965), p. 223

ويقال أن مؤسس الطريقة الشاذلية بالسودان هو الشريف حمد أبو دنانة والذى تزوج بأبنة أبى عبد الله محمد بن سليمان الجزولى مؤسس الطريقة بمراكش وذلك نحو منتصف القرن الخامس عشر الميلادى .

Trimingham, op. cit., p. 223.

(٥٦) أحمد بن محمد المقرى التلمسانى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد – القاهرة (١٩٤٩) ج–٣–ص : ٢٨٩–٣٤١ .

(٥٧) المصدر السابق –ج–٣–ص : ٣١٦ .

(٥٨) المصدر السابق – ص : ٣٠٧ .

(٥٩) المصدر السابق – ص : ٣٢٥ .

(٦٠) المصدر السابق : ص ٣٢٧ .

(٦١) المصدر السابق : ص ٣٣٩ .

(٦٢) ابن بطوطة : ص ٣٠ .

(٦٣) الأدفوى : ص ٨٣ .

(٦٤) صبحى لبيب : التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى – مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية – القاهرة (١٩٥٢) .

Gaston Weit, "les Marchands d'epices sous les sultans mamlouhk", Cahiers d'Histoire Egyptienne, Cairo, (1955), pp. 81–147; E. Ashtor, op. cit., S.D. Goitein, Studies in Islamic History and Institutions, Leiden, (1966), pp. 351–360.

(٦٥) للمزيد عن مظاهر ذلك الاهتمام ، أنظر :

Subhi Labib, op. cit., pp. 68–71,
Goitein, op. cit., pp. 356, 359

(٦٦) الأدفوى : ص ٤٦ .

(٦٧) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ــ حيدر اباد الدكن (١٩٢٩ــ١٩٣٠)ــمجلدــ٢ــجــ٣ــص : ٩٩ــ١٠٠ .

(٦٨) المفضل بن أبى الفضائل ــجــ٢ــص : ٢٢١ .

(٦٩) Labib, op. cit., P. 74

(٧٠) Ibid, P. 73

(٧١) Goitein, op. cit., p. 357.

(٧٢) الأدفوى : ص : ٤٠٩

(٧٣) المقرى ــجــ٣ــص : ٣٣٩ــ٣٤٠ .

(٧٤) احمد بن أبى يعقوب اليعقوبى : كتاب البلدان ــ ليدن (١٨٩١ــ١٨٩٢ ص : ٣٣٥ .

(٧٥) ابن عبد الظاهر : ص ١٤٤ .

(٧٦) المقريزى : الخطط ــجــ١ــص : ٢٠٣ .

(٧٧) Jean-Leon l'Africain, 0p. 485.

(٧٨) ابن حوقل : ص : ٦١ .

(٧٩) أبو الحسن على بن الحسين المسعودى ــ مروج الذهب ومعادن والجواهر تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ــ القاهرة (١٩٦٤(مجلدــ١ــجــ١ــ ص : ٢٦ .

(٨٠) ابن جبير ص : ٣٧ ، الأدفوى : ص ٨ ، ابن دقماق ــجـ٢ــص ٢٨ .

(٨١) الأدفوى : ص ١٥٦ .

(٨٢) عمارة بن على الحكمى : النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية ــ تحقــيق Hartwig Derenbourg باريس (١٨٩٧) ص ١٢٤ .

(٨٣) العماد الأصفهانى الكاتب : خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر (تحقيق أحمد أمين واخرين ــ القاهرة ــ (١٩٥١) جـ١ــص : ١٤٥ــ١٦٨ ، ابن خلكان ــجــ٥ــص : ٣٨٥ــ٣٨٩ .

(٨٤) ياقوت بن عبد الله الحموى : معجم البلدان – بيروت (١٩٥٥) – ج–١–ص : ٣٢٤ ، ج–٢–ص : ٤٩٢ .

(٨٥) أبو عبيد البكرى : الممالك والمسالك –ص : ١٠ب– (فى يوسف فضل حسن : دراسات –ج–١–ص : ٢٩ هامش : ٥ ،وهناك رواية تقول بأن النبى سليمان بن داود اتخذ عيذاب سجنا للعفارتة : ابن جبير ص ٤٤ .

(٨٦) ياقوت – ج–٢–ص : ٤٩٢ .

(٨٧) أبو الفرج الأصفهانى : كتاب الأغانى – القاهرة (١٩٣١ ج–٤–ص : ٢٣٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ – ٢٥٠ ، ٢٥٥ ، محمد بن جرير الطبرى : تاريخ الرسل والملوك – حوادث سنة ١٠٠ هـ .

(٨٨) يوسف بن يعقوب بن المجاور : تاريخ المستبصر – تحقيق Oscar Lofgren ليدن (١٩٥١) –ج–١–ص : ١١٠ ، العماد الأصفهانى –ج–١– ص ١٦٨ ، محمد بن احمد بن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور – تحقيق – محمد مصطفى – القاهرة (١٩٦٠) ج–٤–ص : ٨٠ .

(٨٩) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (فى : المكتبة السودانية العربية – تحقيق مصطفى محمد مسعد – القاهرة – ١٩٧٢) ص ٢٤٥ .

(٩٠) العماد الاصفهانى : ص ١٦٨ .